

«أين ينتهي الكسل؟ وأين يبدأ التأمل؟»

جان دوتور، دوسان

## الفصل الرابع

### التأثيرات العضوية للتلفاز

لنتخيل للحظات وجود مجمع للحكماء يضم مختصين بالتربية وعلم النفس وطب الأطفال وعلم الاجتماع وغيرهم يعكفون على دراسة الآثار المدمرة لاختراع شيطاني قام به جوهانز جنسفليش المدعو غوتبرغ في القرن الخامس عشر الميلادي (الطباعة):

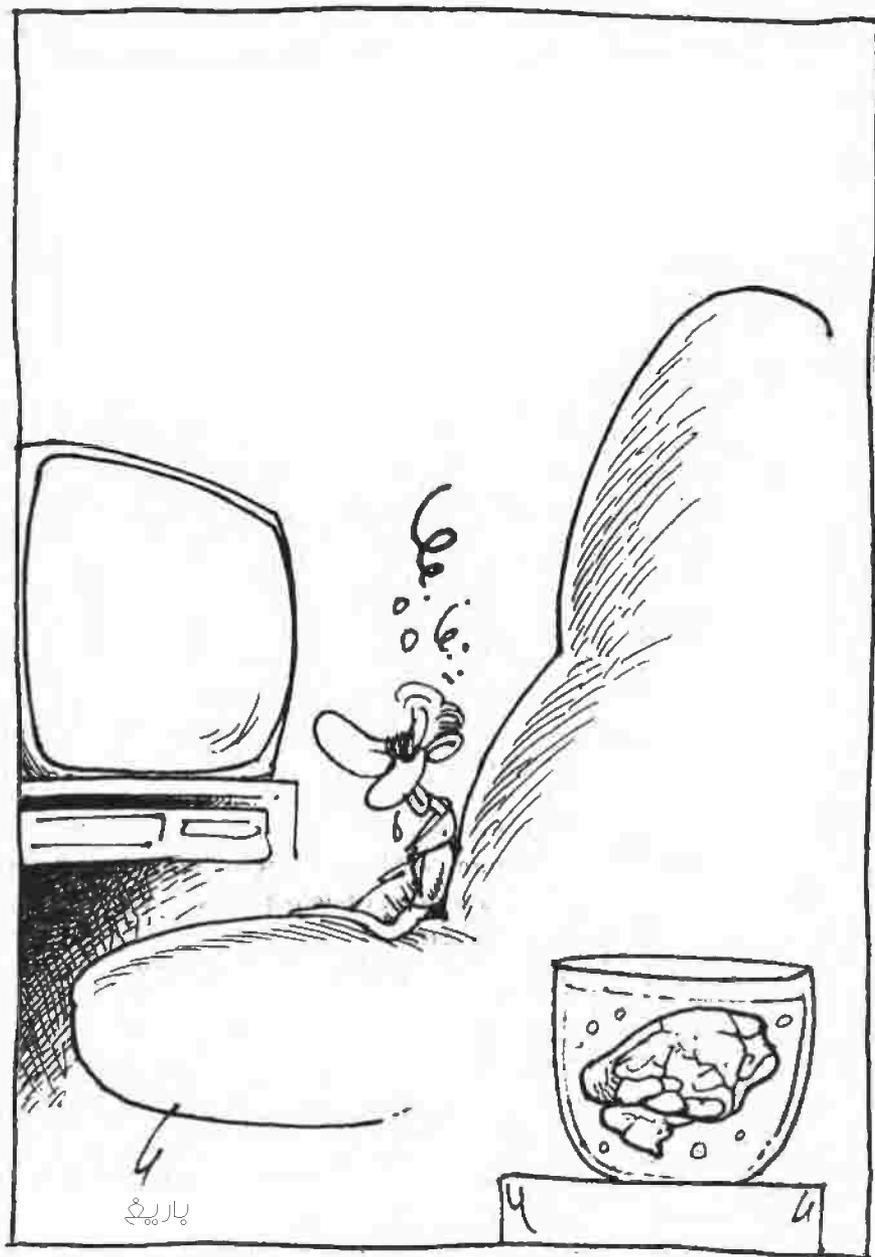
- الكتاب تلك الثمرة الملعونة للمطبعة يشار إليه بإصبع الاتهام باسم الحفاظ على الصحة العقلية للأطفال الذين يخضعون لهذا النوع الجديد من الاستبداد.
- النمو المخيف لنصف الكرة المخية الأيسر مركز اللغة والفكر التجريدي.
- ضمور الجهاز الحركي المأساوي بسبب عدم الحركة الناتج عن المطالعة، والتراجع المرضي للإحساس بالمكان والزمان بسبب العزلة والانكماش على النفس والتفرغ لهذا الكتاب المؤذي.
- الارتباك المحزن في أغنية رولان، والجنس الصريح في نشيد الأناشيد الذي يعرض على عقول الشباب دون احتياط.
- توقفوا! لا تضيفوا المزيد، وامنعوا انتشار هذا المنتج الخبيث، وليحى الناسخون وشعراء الموسيقى حماة المبادئ الحقيقية والتطور الأصيل للكائن البشري.

إن إلقاء نظرة فاحصة بعد مرور خمسة قرون على اكتشاف الطباعة، والأثر الذي تركته يسمح لنا بالتبسم على المشهد المذكور أعلاه، مع العلم بأننا لا نستطيع إيقاف عجلة الزمن من جهة، ومن جهة أخرى فالإنسان لا يعبر إلا عن ذاته من خلال اختراعاته، إن العجل يستخدم في المصفحة وسيارة الإسعاف، والمطبعة تضع تحت تصرف الناس كلمات ضعيفة أو محبة، و الإنجيل كتاب بحمد الله، وماين كامف هو من أودلف هتلر كذلك لسوء الحظ، إن هذه النسبية في الأحكام يجب ألا تغيب عن أنظارنا عندما ندرس تأثير التلفاز على نفسية الأطفال، وذلك لسببين على الأقل: أولهما: أن الرائي وسيلة إعلام حديثة العهد، وأن ثورة السلوك التي سببتها لم تنته بعد، وهي أبعد من أن تنتهي؛ وثانيهما: أن من الصعب جداً فصل الأسباب والآثار، وعزل العوامل المؤثرة الأخرى إلى جانب الشاشة مثل: الوسط المحيط والثقافة... إلخ.

ويجب الابتعاد كذلك عن البساطة، فهناك باحثون يقرعون ناقوس الخطر، ويجب أن نصغي إلى تحذيراتهم دون أن نقع في فخ مواقف انكماش على النفس باردة، أو مواقف خوف وجزع. تجاوز الإنسان اختراع السكك الحديدية لأنه قبلها، ولأنه قبل كذلك الجهود المبذولة ومراجعة الذات الضرورية لجعلها دقيقة وأمنة.

### الآثار النفسية المرتبطة بفعل مشاهدة الرائي

لقد أثرتنا سابقاً موضوع الآثار المادية للجلسات الطويلة أمام الشاشة الصغيرة، وبدون شك فإن كل مؤثر مادي ينعكس على الناحية النفسية للإنسان، ولندكرها بسرعة.



باربي

٤

٤

إن انعدام الحركة يؤدي إلى عواقب مهمة لم تدرس إلا قليلاً من قبل الباحثين، وهذا مثير للاستغراب، إنها تراكم التوتر في الجهاز العصبي والذي لا يجد منفذاً ليتحرر، ففي اللعب مثلاً، يتحقق التوازن بين الإثارة الحسية أو الجسدية والعقل مباشرة، ففي الهواء الطلق يستطيع الطفل أن يستفيد بأفضل الوجوه من الأدرينالين الذي أفرزه جسمه، وحتى اللعب الاجتماعية الجماعية الدقيقة التنظيم تسمح بحدوث هذا التوازن الصحي، بإمكاننا أن نضرب بقوة على الطاولة ورقة لعب رابحة (لعبة الورق)، أو أن نرمي زهر النرد بقوة إيمائية، ونقوم بحركات لجلب الحظ، وشتم شريك اللعب الذي يقودك إلى الإفلاس في لعبة المونوبولي، وأن نخربش بسرعة وغضب في لعبة قاموس الرسوم (Pictionary) وأن نجعل النظر في كل الاتجاهات، أو أن نتوارى خلسة لنصل إلى المربع الأخير في أيسر اللوحة.

إن مشاهدة الرائي لا تسمح بإعادة التوازن الدائم بين العواطف والحركة، إننا لسنا بحاجة لإحصائيات معقدة أو دراسات في المخابر لملاحظة هذه التأثيرات على الأطفال في محيطنا، إن درجة تعبهم وقابليتهم للاستثارة وعنهم وعدم الروحي الحركي لها علاقة مباشرة بتراكم التوتر غير المنفس أمام الشاشة الصغيرة.

### الشاشة الصغيرة كبديل عن النشاطات الأخرى

دون أحكام مسبقة عن الآثار الضارة للرائي، يجب علينا ملاحظة أنه يحل محل النشاطات الأخرى التي نعرف أهميتها لتطور الطفل الصغير من الناحية العاطفية النفسية وتطور ذكائه، إن أبحاث بياجيه أظهرت

بوضوح الأمر الجلي الذي يعرفه كل الآباء والمدرسون الجديرون بهذا الاسم، إننا نتعلم من خلال التعامل مع الأشياء والتفاعل معها، إن الذكاء المبني على الاستهلاك السلبي للمشاهد التلفزيونية وحدها والصوت المرافق لها يبقى ناقصاً، مهما كانت مضامينه رائعة.

### كيف يؤثر الرائي على الأطفال؟

أربع طرق لتمثل وتبني العنف ينقلها الرائي عددها المركز العالمي:

- التقليد: يجد الطفل نفسه في شخصية يقلد تماماً سلوكها، أو يتبنى آراءها، وهكذا يصبح أسلوبه في التقليد إرادياً.
  - الاندماج: إن آلية التمثل والتقليد تحصل بدون وعي، فالطفل لا يختار قدوته.
  - التشجيع: إن مشاهد معينة تحرض الطفل على القيام بأعمال ذات علاقة بها.
  - التقبل: إن الطفل الذي تأقلم مع تكرار مشاهدة أعمال العنف، لن يستنكرها بعد ذلك، وسيعتبرها طبيعية.
- المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

والحال هكذا، فالوقت الذي يقضيه الطفل أمام الرائي يزيد من سنة لأخرى، ولا شيء يسمح في الوقت الحالي بتوقع عكس هذا الاتجاه، إن بعض الأرقام التي تذكرها الطبيبة كارين بوتشي العاملة في الصحة المدرسية في مقاطعة جنيف تدعو إلى التأمل:

- اعتباراً من السنة الثانية من العمر يُشغل الطفل جهاز الرائي بنفسه.
  - 50% من الأطفال بعمر الثالثة يشاهدون الرائي يومياً.
  - في عمر السابعة يقضي الأطفال الفرنسيون ساعة ونصف أمام شاشة التلفاز.
  - ويزيد هذا الوقت إلى ساعتين وربع عند الأطفال بين 7 و 12 عاماً، ويصل إلى أربع ساعات في الأيام التي يوجد فيها دوام مدرسي.
  - أما في الولايات المتحدة فإن متوسط المشاهدة اليومية للتلفاز على مدار السنة لمختلف الأعمار دون فصل حتى سن الحادية عشر يبلغ ثلاث ساعات و39 دقيقة في اليوم.
- وعلى كل حال فإن الأرقام الجامدة ليست ذات قيمة كبيرة، والفضل يعود للجامعي الباريسي فرانسوا مارييه الذي وضع الطرق المختلفة التي يشاهد الطفل من خلالها التلفاز، إنه يُفرق بين طرق ثلاث ويصف آثار كل واحدة منها:
- التلفاز المعشوق، هو الذي نختاره مسبقاً، ومن أجله نوقف أي نشاط آخر.
  - التلفاز حاضر الوجود، هو الذي نتركه يعمل دون أن نتابعه حقاً، والذي نعيه اهتماماً مختلفاً بحسب الفعاليات الأخرى التي نقوم بها بنفس الوقت.
  - تلفاز ملء الفراغ، هو الذي نشاهده لأنه لا يوجد لدينا شيء أفضل فعله، وذلك لقتل الوقت، أو للتخلص من عزلة بيت فاقد للعلاقات الحميمة، أو لنسيان ضاحية مدينة كبيرة خالية من وسائل الترفيه.

بحسب رأي مارييه، فإن طريقة المشاهدة الأولى هي الوحيدة التي تكون على حساب النشاطات الأخرى التي يفترض أنها أكثر نفعاً، أما الثالثة فهي نتيجة لغياب جوشج تآلق الطفل، والثانية فإنها لا تسيء لتطور الطفل، ويمكن لها أن تزيد كفاءته من خلال السماح له بالتخلص من «الوقت الممل»، ومن خلال تعليمه القيام بعدة نشاطات بأن واحد، مثل إصغائنا للمذياع عندما نقود السيارة، والذي لا يمنعنا من الانتباه للطريق، ولا من التهيئة للمحاضرة التي نذهب إليها، ولا من التفكير بعلاقتنا مع الآخرين.

### الافتتان بالرئائي

العديد من الكتاب ( جاك بيفتو، بروتو لوساتو، ليليان لوزيتا، إذا لم نرد أن نذكر سواهم) يؤكدون وهم محقون على آثار الرئائي كمنوم مغناطيسي، ودون الدخول في تفاصيل عصبية مملة، فيكفي أن نعرف أن النظر الثابت على ذبذبات مهبط كهربيسي ( علينا ألا ننسى أن الصورة التي تظهر على التلفاز تنتج عن نقطة وحيدة تجوب الشاشة بسرعة فائقة، وأن استمرار خيال هذه النقطة على الشبكية هو الذي يعطي الصورة) يؤلّد حالة نصف وعي يترجمها بث موجات ألفا في الدماغ، وهكذا نصبح أكثر قابلية للتأثر بالإيحاء، وغير قادرين على القيام ببعض الوظائف مثل التحليل، أو بكل بساطة إيقاف التلفاز عن البث، هذه الظاهرة تطال خاصة الأطفال صغار السن الذين يسبب عدم نضجهم الفكري والعاطفي زيادة ضعفهم أمام التلفاز، وسنعود لهذا الموضوع عندما نتكلم عن ظاهرة العنف.

## تأثير يشبه الإدمان

نقارن أحياناً الرائي بمادة مخدرة، وبالمراحل المختلفة من الإدمان التي تتجم عنها: ومضة متعة هائلة، أو رغبة في استعادة ذلك الإحساس، وضرورة زيادة الجرعة للحصول على التأثير البدئي، واستهلاك متزايد في مقابل متعة متناقصة، وأخيراً اعتماد كلي مع وجود ظاهرة حرمان عند الفطام.

إن التشابه بالتأكيد ليس مجانياً للحقيقة، ويستحق أن نركز عليه على الأقل من الناحية المجازية.

ولكن يجب أن نبقى حذرين، فبوسعنا أن نقول الشيء نفسه بخصوص نشاطات إنسانية أخرى مثل الرياضة ومناقسات المحترفين والموسيقى..... وحتى القراءة! وكي نبقي في مجال المقارنة مع المخدرات، فلنذكر أن ظاهرة الإدمان لها علاقة بالمدمن بقدر ما لها علاقة بتوفر المادة المخدرة، فكثير من الناس يشربون الكحول، ولا يصبح معظمهم كحوليين، وهذا يقودنا إلى تحديد مجموعات هي أكثر عرضة لإدمان التلفاز، وإلى دراسة الوسط الاجتماعي الاقتصادي، والتطور العاطفي، والعوز التعليمي التي يمكن لها أن تخلق مشكلة مأساوية، يصبح إدمان التلفاز بجانبها أداة تسلية مُسالمة.

كل الدراسات أو جلها تتفق على نقطة، تناسب مشاهدة الرائي عكساً مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وإذا وفرنا على أنفسنا جهد الاطلاع على الأرقام، واكتفيننا بخلاصات هذه الدراسات نجد مايلي: إن المستهلك الكبير للرائي يعيش في وسط فقير قليل الثقافة وغير مشجع كفاية، وضمن

عائلة متفككة، إن حل مشكلة المبالغة في مشاهدة الرائي يمر عن طريق إصلاحات سياسية تتعامل مع أسباب الظاهرة وليس نتائجها، وبانتظارها يقترح مارييه أن نترك التلفاز لهؤلاء التُعاء بما أننا لا نستطيع أن نُعيد لهم آباءهم.

### التلفاز والمطالعة والملكة الإدراكية

«إنهم لا يقرؤون، ولا عجب فهم مُسمرون طيلة الوقت أمام الرائي»

«لقد فقدوا كل قدرة على التركيز: شيء طبيعي وكيف لهم ذلك بحضور الرائي، وتقليب المحطات، والدعايات الإعلانية، والمشاهد المتقطعة القصيرة... إلخ».

«إننا نقوم ببناء جيل من الأميين»

نسمع هذا النواح من أفواه المدرسين والآباء واختصاصي علم النفس والعديد من الاختصاصيين بشؤون الطفولة، وكلنا أو جُلنا عزف على هذا اللحن.

في يوم من الأيام، وبقناعات متفاوتة، متوجسين أحياناً خوفاً من أن نجد أنفسنا في صف المتزمتين من كل الاتجاهات، الراضين للتغيير، والمتمسكين بجنون «بالقيم المبدئية».

وعلى العكس، فإننا أحياناً خضعنا لإغراء اتباع الدرُجة (الموضة)، وتخلينا عن راية الآباء المورثين للقيم، وقبلنا الأمر بـعجره وبُجره كي لا يشعر الملاك الصغير بالحرمان.

ولكن اطمئنا فمهما فعلتم، فأنتم تعكسون التناقض العام في الموقف من وسيلة إعلام ما زالت غير معروفة تماماً، إن مواقعنا و أفعالنا المتناقضة لا تختلف عن آراء الخبراء والباحثين في هذا المجال، من بين مُفريقي الصفوف العنيفين في هجومهم على الرائي باسم الثقافة، يمكننا أن نذكر رونييه دوبو، وكتابه ذا العنوان الكارثي «الجيل الأخير للكتابة» وبرونولوساتو وكتابه «ابن الشاشة» فكل منهما - وبناء على أدلة مختلفة - يُحملون التلفاز مسؤولية كبيرة في عدم قدرة الأجيال الصغيرة على الكتابة، وبالاعتماد على الأرقام واستطلاعات الرأي والتقارير يؤكدان أن مهارات الأطفال في التعامل مع النصوص قد انخفضت بشكل مأساوي خلال السنوات الأخيرة، والأكثر إثارة للقلق يكمن في الجذب الذي أصاب القدرة على التفكير الخلاق لدى مدمني الرائي، وبسبب عدم قدرتهم على الفهم العميق، ومحدودية رؤيتهم على المدى القصير، وتجردهم من الخلفية الثقافية، وعلوقهم في اللحظة الراهنة والنظرة السطحية، وعجزهم عن بناء فكر ناقد متماسك، نجد الأطفال الذين تغذوا على حليب التلفاز ينحدرون على الهضبة الزلقة نحو الهمجية.

لا يمكننا - كما يفعل البعض - أن نتجاهل هذه الكلمات ببساطة، إن هذه التحذيرات يجب أن تحمل على محمل الجد، وتتطلب إجراءات وقائية أثناء القيام بتربية الأطفال، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل الأخير من الكتاب، ولكن الخوف المُربك ليس هو الحل، ويجدر بنا أن نتقبل أشكالاً جديدة من التفكير والسلوك تُؤد تحت أنظارنا، وسوف نشرح هذا التطور المطلوب في الفصل المتعلق بالنواحي الاجتماعية للموضوع، في نظرنا إن الخطر الحقيقي والوحيد يكمن في محاولة رفض نوع من الثقافة باسم نوع

آخر منها، وبشيء من المبالغة: القراءة أو الرائي، والمكتوب أو الصورة، والثقافة أو الإحساس، والخطاب أو التعجب، والتحليل أو السطحية... إلخ. إن حرب المبادئ التي بدأت بين الحداثة الكاذبة التي تريد أن تتخلى عن التراث المكتوب، والحنين إلى ماضٍ يُدعى بأنه جميل، ماضي الحضارة الإغريقية اللاتينية، إن هذه الحرب لا جدوى منها، مثل كل الحروب.

وحتى نبقى في موضوعنا حول آثار الرائي على الأطفال، فلا بد من أن نستوعب حجم هذه الظاهرة، لا يمكننا أن ننكر أن الرائي رغم أنه ينمي قدرات فكرية أخرى، ولكنه يسيء لقابلية اكتساب التفكير المنطقي، والتمكن من الكتابة، بقي علينا أن نعرف إلى أي حد يتحمل التلفاز وحده هذه المسؤولية، لأنه توجد عوامل أخرى مؤثرة وخاصة تفكك الأسرة وغياب الأب (ظاهرة حللها بشكل جيد جداً كل من س و م. نباتي أو رغي كورنو). ولنعبر عن هذا بطريقة مُبسطة، فإننا نقول إن غياب الوالدين يدفع إلى مشاهدة التلفاز الذي يلعب دور الأم الحاضنة، وهكذا تضعف قدرة الأطفال على التواصل مع الآخرين، وهنا أيضاً نعود لمشكلة الأسباب والنتائج، هل الرائي هو الذي غير المجتمع؟ أم أن التغيير الاجتماعي هو الذي سبب إدمان الرائي؟

### ظاهرة النموذج المُصَغَّر أو التصميم

إنه برونو لوساتو الذي يعرض هذا التعبير، وهو ترجمة حرة لظاهرة «الاتجاه السائد» (Mainstreaming) وهي نظرية طورتها مؤسسة أنينبرغ للاتصالات في فيلادلفيا في تقرير لها عن الرائي في نهاية السبعينات، ما هذه الظاهرة؟

برونو لوساتويقول: «لا يقبل الجمهور التعقيد والفروق الدقيقة والمراجعة والاعتراف بالجهل والتأمل العميق في القضايا المهمة، فهو يريد تصميماً أو نموذجاً ثابتاً، يمكنه التعرف عليه بسهولة مثل شخصيات وديكور برنامج المفضل، بألوانها الغامقة، هذا التصميم يبنيه التلفاز: ويفرزه بطريقة لا شعورية كل من يشارك في صنع التلفاز، كما ينسج العنكبوت بيته.

هذا التصميم يتضمن حزمة مُلوّنة من الأفكار المسيطرة أو الهامشية (...)، ولكنه لا يمثل الواقع (...). إنه عبارة عن (...) خارطة مُشوّهة متجانسة مُلوّنة مُهندَسة، وتمثل مواقعاً غير موجودة!»

### الكتاب والرأي: ليسا أعداء إلى هذا الحد

(...) تُقدم المنافسة الشديدة التي يمارسها الرأي كتفسير لتراجع المطالعة: يفقد الكتاب فرصته أمام التلفاز المستهلك للوقت. إنها فكرة تأخذها دراسة المؤسسة الوطنية العليا للتربية والتعليم INSEE بعكس المقصود منها، تعلمنا هذه الدراسة أن الناس الذين يشاهدون الرأي لمدة ثلاث ساعات على الأقل في اليوم لا يقرؤون كتباً أقل من الذين يشاهدونه أقل من ساعة!

إن الوقت المأخوذ من قبل الرأي يكون على حساب قراءة أشياء أخرى غير الكتاب، « وذلك لأننا إما نحتمي مطالعة الكتب بالمحافظة عليها، أو أن مطالعتنا للكتاب قليلة جداً بالأصل ليتمكن التلفاز من الحد منها».

وعموماً فإنّ القراءة والقراء المكثّرين من القراءة نجدهم بين الفرنسيين الذين يمارسون عدة نشاطات، الذهاب إلى المسرح والمتاحف والحفلات الموسيقية، إنه منطلق التراكم الذي يُسيطر: كلما كانت حياتنا الثقافية زاخرة، كلما زادت مطالعتنا للكتب...

«تراجع القراءة» مقال كتبه فرانسوا دو سينغلي وكلود تيلو وفرانسواز دومونتييه، في مجلة الاقتصاد والإحصاء، رقم 23 الصادر في حزيران 1990م نقلاً عن كريستين غران في «عالم التعليم» أيار 1991م.

### كفاءات جديدة بفضل التلفاز؟

في الاتجاه المعاكس لهاجمي التلفاز يوجد مؤلفون مثل: ميشيل فيرييه وخاصة فرانسوا مارييه لا يترددون بالدفاع عنه.

الأول يشير في كتابه «الثقافة العمالية» إلى أن الرائي يحافظ على «العلاقة الأكثر مساواة (...)، والأكثر حرية كذلك (لأنه بإمكان من يريد أن ينسحب أن يفعل ذلك)، والأكثر انفتاحاً (لأن من يريد أن يقول كلمته يستطيع ذلك)».

أما الثاني فإنه ينقض تعسف مصادر «الثقافة»، التي تشكل بنظره مجموعة من التقاليد البالية التي يهاجمها الرائي، إن بلاهة الأطفال المزعومة التي يسببها الرائي هي غير موجودة إلا في خيال المدافعين عن نمط حياة عفا عليها الزمن، باسم رؤية محدودة للذكاء تحصره في كفاءات بالية مصدرها الكتب، يجب على العكس تشجيع الطفل على

مشاهدة التلفاز، لتحضيره للتمكن من التعامل مع نظام اتصالات أكبر أداء، ولتدريبه على الخروج من عصر «الأحادية» التي رُبيت عليها الأجيال السابقة، والتي تمنعها من القيام بعدة مهمات بأن واحد، ومن العمل في أجواء الصخب، ومن التواصل بطرق مختلفة في نفس الوقت... إلخ.

قيم كُنّا سابقاً نبجلها، وكانت تعني قمة الأداء يجب أن نتخلى عنها، ومنها: التركيز الذي يحصرنا في فعالية واحدة، ويُفوت علينا إدراك أهم ما يحصل، والسكوت الذي لم يعد من الذهب، والخيار الوحيد الذي يجب الالتزام به، بينما يمكننا برؤى جديدة أن نقلب المحطات، وأن نغير البرنامج قبل أن نُضيع أمسيتنا.

إن التمسك بالأشكال التقليدية للثقافة واللباس والهمس المحترم للكلام والأساليب المتكلفة... إلخ. ليست بالنسبة لمارييه سوى واجهات خارجية، ولا يمكنها أن تعبر عن قيم فكرية أو روحية.

أما رتبة الزمن فيجب علينا أن نتخلى عنها وبسرعة، لحساب تقنيات حديثة مثل جهاز التحكم عن بعد، والفيديو، فتسريع الزمن أو إبطاؤه يسمح بتغيير صحي لبُنَيْته الإدراكية، بالمرور على ما ليست له أهمية، والتوقف عند الأمور الأساسية، وإنجاز عدة أعمال بأن واحد إذا لم يكن المشهد مثيراً للاهتمام لحد يُجبر على التركيز عليه فقط، إن الأطفال الذين اكتشفوا منذ طفولتهم الباكرة هذه التطورات الحديثة يستطيعون في نهاية المطاف امتلاك كفاءات لا نملكها.

أخيراً يلاحظ مارييه بالمناسبة أن الأطفال الذين يدمنون الرائي، ورغم أنهم يبدون ضعفاء أمام المكتوب، ولكنهم يظهرون أميتنا، إنهم

يتقنون أكثر منا استعمال الأجهزة، ويكتشفون بسرعة كل خصائصها، في الوقت الذي نكتشف فيه بصعوبة واحدة أو اثنتين من تلك الخصائص، ونحن نحمل دليل الاستعمال بيدنا!

إن الحجج التي يقدمها مارييه جديدة بالاهتمام لأنها تذكرنا في الوقت المناسب بنسبية المفاهيم مثل الذكاء، والصحة العقلية، والأعراف الثقافية والتطور... إلخ. وبالمقابل فإنها لا تجبرنا على التخلي عن حسنا الناقد لمحدودية وسيلة إعلام تحاول أن تحتل مكاناً على حساب الوسائل الأخرى، وأن تطفئ بشكل غير مقبول على كل أشكال الحياة، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل التالي.

### العنف والتلفاز: الدليل الدامغ في الملف

إذا كان الشك لا زال مخيماً على آثار الرائي على ذكاء الأطفال، فإن بحوزتنا الآن فرضيات قوية تتعلق بالعنف المرتبط بمشاهدة المشاهد المصورة، إذا لم يكن الرائي قادراً على تطوير الذكاء — إن الرائي لا يجعل الطفل أكثر غباء كما أن الاستمناء لا يسبب الطرش — ولكنه لسوء الحظ يوقظ اندفاعات العنف النائمة في أعماق كل مشاهد، وهذا لسببين على الأقل.

أولاً: عدم القدرة على تفريغ الشحنة العاطفية المتراكمة بالتسجيل العفوي لمشاهد لا نتحكم بها، والذي يسبب تأجيحاً لا يُنكر للعنف الذي سيظهر بطريقة فظة عاجلاً أم آجلاً.

## العنف اليوم

في مجتمعاتنا المعاصرة، يُعبّر عن العنف بطقوس أصبحت أكثر تعقيداً، السباق على تحصيل الشهادات، والمطامع الشخصية، والاستهلاك التفاخري، والمنافسة الاقتصادية، والإبداع الفني، والفكاهة، والرياضة.... وكل هذه الفعاليات تمارس ضمن مؤسسة خاصة لها قواعدها وتسلسلها الإداري: المدرسة، والشركة، والمركز التجاري.

ولكن هذه الممارسات التي أصبحت أكثر تعقيداً وتقنياً تسبب اضطرابات مثل الشدة النفسية، وفعاليات أقل «شرعية» تظهر متحديّة نظاماً اقتصادياً أو بيروقراطياً ساحقاً: الإستراتيجيات غير المؤذية الصغيرة (التغيب والخداع والغش)، و«الجريمة الاقتصادية» (سرقة الأشياء المعروضة، وخداع شركات التأمين والغش الضريبي)، وتخريب النفّاس، كل هذه المظاهر في زيادة واضحة بينما يميل العنف الجسدي (القتل، والاعتداء بالجرح والضرب) إلى الانخفاض في أوروبا رغم المخاوف المبالغ بها لبعض الأوساط الإعلامية (باستثناء المدن الكبيرة حيث زاد العنف الجسدي في العقود الأخيرة، ولكن دون الوصول إلى مستويات القرن الماضي).

وما يدعو للاستغراب هو الشعور الشخصي بعدم الأمان في الوقت الذي يزيد فيه الأمان فعلياً، إن العنف المادي والجسدي قد استُبدل جزئياً بعنف خيالي رمزي يسمح باستمرارية الأسطورة المؤسسة (قتل قابيل لهاييل).

فرنان وتيه، عالم اجتماع، مجلة المعلم، أيلول 1991م.

ثانياً: لا بد أن نكون سيئي النية لندعي أن العنف لا يُيجل في البرامج والأفلام والمسلسلات... إلخ، التي تُعرض على المشاهدين، والبرامج المخصصة للأطفال لا تشذ عن هذه القاعدة، وتحتوي كماً من المشاهد العنيفة الذي لا يمكن مقارنته بالعنف الموجود بوسائل الإعلام الأخرى والألعاب والنشاطات، إننا نضرب ونقتل وندمر ونفجر ونبيد ونعذب بكثرة لا نشاهدها في الحياة اليومية لأطفالنا (رغم أن بعض أشكال العنف المستور موجودة). عندما يصل صدى صوت التلفاز لأسماع الكبير الذي أوكل للرائي مهمة شغل صغيره، فإنه لا يسمع غالباً سوى صرخات الرعب، وعويل الحقد، وأصوات انفجار قذائف الأسلحة المتطورة، وصفير الصواريخ، وطققة الرشاشات، أما الأطفال البؤساء فتقع نظراتهم الحائرة القلقة على مدن مخربة، وسجناء تُساء معاملتهم، ووحوش قبيحة في خدمة قوى الشر.

ويردون علينا، بأن هذه الأمور ليست سوى محض خيال لا يمكن تحقيقه يستطيع الأطفال حمله على هذا المحمل، بالتأكيد ولكن النماذج القصصية والمواقف النموذجية توحى بإصرار أن اللجوء للقوة يحل كل المشكلات، وأن الحل هو دائماً «حل جذري»، إذا سمحتم لنا باستخدام التعبير، إن أسوأ ما في الأمر لا يكمن في التمييز بين الحقيقة والخيال. فلا يوجد تلفاز بدون عنف؛ لأن طبيعة العنف تتشاهد عن بعد.

إفريقيا؟ صراع قبلي، ومرترقة يعيشون على أمجاد الحقبة الاستعمارية، والمجاعات، أمريكا اللاتينية؟ تجار مخدرات وحرب عصابات، نيويورك؟

لصوص وأسواق تجارية تتفجر، ولا يهمننا عن بركان سوى معرفة عدد الضحايا الذين سقطوا عند اندفاعه الأخير، وما زالت صورة الطفلة الكولومبية التي تحتضر في الوحل النازل من مرتفعات نيشادو دل رويز حاضرة في ذاكرتنا، كل هذا موجود بالطبع، ولكن رفع قيمة العنف وقيمة المعاناة والضعف البشري، وتشجيع الحقد الأعمى لا بد له أن يغير في النهاية نظرتنا للعالم من حولنا، إن التعامل مع الآخر المبني على الخوف لا يمكن له أن يولد السلام والتعاون، ومن نافذة القول إن نؤكد أن الطفل هو الأكثر عرضة للتأثر بما يرى، وخاصة إذا كان يتلقى هذه الرسائل وهو في حالة تشبه التنويم المغناطيسي المذكورة سابقاً.

### هل هي آثار قابلة للقياس؟

العلماء الذين لا يكتفون بالانطباعات العامة وضعوا بروتوكولات تجريبية مختلفة ليظهروا بالأرقام العلاقة بين الرائي وظاهرة العنف عند الأطفال.

وقد يكون من المفيد بهذه المناسبة أن نقوم بجولة منهجية صغيرة لفهم قيمة وجود التجارب «المخبرية».

يجب أن نذكر أولاً كما يفعل كل الباحثين الأمينين بأن ظروف التجارب مهما حاولت أن تعكس الحقيقة فإنها تبقى غير مطابقة للواقع، ولذلك وجب علينا أن نكون حذرين جداً عند استخلاص النتائج، وكذلك علينا ألا يغيب عن بالنا أن «العلوم الإنسانية» لا تشابه تماماً «العلوم الدقيقة». فعدد العوامل التي تتدخل في السلوك الإنساني تبقى غير محددة وخارج حدود السيطرة مهما كانت الاحتياطات المتخذة والإجراء المتبع. وأخيراً فإن من

أشد الصعوبات تفريق المسؤولية المباشرة (لأن الأطفال الذين يشاهدون الرائي أصبحوا عنفياً) عن العلاقة الممكنة (الأطفال العُنفُ يشاهدون الرائي أكثر من غيرهم)، وعن العاقبة (لأن الأطفال عنفُ فإنهم يشاهدون الرائي). ومن الأمثلة البسيطة جداً في الحذر المطلوب أمام استنتاجات الباحثين الدُعابة الآتية: «هل تعرفون السبب الأول للطلاق؟ الزواج!». يجب أن يكون لدينا نفس الشك فيما يتعلق بالإحصائيات التي يمكننا من خلالها أن نستنتج الشيء وعكسه، إن لم تكن مزودين بمعارف أساسية، بإمكاننا توضيح هذا الخطر من خلال الإحصائية الآتية: «دراسة (هـ) التي تقوم بها المؤسسة (ي) (مثلاً في مدينة أمريكية مشهورة) الاختصاصية بالأبحاث حول الإدمان أكدت أن 96% من حالات الوفاة التي سببتها جرعة زائدة من الهيرويين، كانت عند أشخاص رضعوا من أمهاتهم مرة واحدة على الأقل خلال السنة الأولى من حياتهم». هذه الإحصائية الصحيحة بحد ذاتها لا تسمح باستنتاج نتائج محتملة إلا إذا قارنا المعطيات بمعطيات مجموعة شاهدة، فإذا بقيت النسبة نفسها عند الناس الذين لا يتعاطون الهيرويين، فلا يمكننا بطبيعة الحال أن نستنتج أي شيء بخصوص دور حليب الأم في الوفاة من جرعة الهيرويين الزائدة.

إن هذا التوضيح لا بد منه قبل أن نطلع على بعض الأبحاث التي أُجريت حول موضوع العنف المتعلق بمشاهدة الرائي من قبل الأطفال، وذلك إذا أردنا أن نتجنب الوقوع في فخ العلم الكاذب.

### الأبحاث والنتائج حول ظاهرة العنف

إن التساؤل المطروح حول تأثير المشاهد العنيفة على مشاهدي التلفاز ليس حديثاً: فمنذ 1916م، صنفت دراسة فرنسية السينما «كمدرسة للانحطاط

والجريمة». إذا كانت هذه العبارة المختصرة تجعلنا نتبسم اليوم، خاصة إذا فكرنا بالمشاهد البريئة لأفلام تلك الحقبة، ولكنها تشعرنا بضرورة إعادة النظر والتفكير الرصين بالتغيير الذي طرأ على مجتمعاتنا.

كانت أولى الدراسات المجراة على ظاهرة العنف أمريكية، ثم أجريت دراسات في بريطانيا، وأخيراً في دول أوروبا الأخرى، ومعظمها تبقى متأرجحة في استنتاجاتها، رافضة أن تلقى باللائمة كلها على التلفاز في الزيادة المتوقعة عند المشاهدين صغار السن.

ولذلك فإننا سوف نصل إلى استنتاجاتنا الخاصة من خلال دراسة العناصر المهمة لهذا الملف.

أولاً: هذا الرقم المجرد الذي تذكره مجلة تربوية أمريكية في عام 1985م: «(...) يشاهد الطفل الأمريكي العادي 18... جريمة قتل قبل أن يُنهي دراسته الثانوية». والسؤال الذي يظهر على السطح مباشرة هو:

لماذا؟ لماذا هذه «670 جريمة قتل، 15 حادثة اغتصاب، 848 شجاراً، 419 تبادل إطلاق نار أو انفجاراً، 14 عملية خطف، 11 حادثة سرقة تحت تهديد السلاح، 8 حوادث انتحار، 32 عملية خطف رهائن، 27 مشهد تعذيب، 18 مشهد تعاطي مخدرات، 9 حوادث رمي نفس من خلال نافذة، 13 محاولة خنق، و 11 مشهداً لمعارك حربية (...) المشاهد التي أحصتها المجلة الأسبوعية لوبوان Le Point عن محطات التلفاز الفرنسية خلال أسبوع؟

قبل أن ندعي شرح أو تفسير أي شيء لدى الطفل، لا يمكننا تجاهل هذه المشكلة الفلسفية: لماذا يجد الشر والمعاناة والدناءة هذا الصدى عند الطفل الذي ندعوه باعتباطاً بالحكيم؟

إنه ليس من حق مؤلِّفي هذا الكتاب أن يعطوا جواباً لكل سؤال يخطر ببال أحدنا، ولكن وضع الطفل في ظرف عام حيث المنافسة، والصراع العنيف بهدف السيطرة، والاصطفاء الشديد، والعنف على كل المستويات (السياسية والاقتصادية)، والشدة النفسية، والخوف من الفشل (انتحار طلاب المدارس في اليابان)، وتبجيل النجاح و«العراك» («إنه رجل مكافح، أو مندفع بجموح») يتم تقديرها كمثُلٍ عليا. ومن قبل من؟ إن لم نكن نحن الكبار؟ لا شك في أنه نوع من السذاجة أن نخلي أنفسنا من المسؤولية، ونحاكم الأمر كقضية ولنضيف المزيد من التشاؤم نريد أن نحدد أن الطفل ليس بريئاً تماماً، وأن الشر يجذبه أحياناً أكثر من الخير... تناقض تعرض له المدرسون والآباء في يوم من الأيام، ولنعود إلى صلب الموضوع يجب علينا أن نركز على الأبحاث المجراة في المخابر، دون أن نهمل الجانب المصطنع للحالات المذكورة.

### جهاز الفيديو كوسيلة مضادة للعنف!

(...) كالكثير من الآباء لست ضد التلفاز من الناحية المبدئية: فأنا أحاول أن أتعايش معه، وأندفع نحو كل ما يُنشر في المكتبات والمجلات حول مضار وفوائد الشاشة الصغيرة المتعلقة بأبنائي الصغار. إنه من الصعب أن تكون حكماً في المباراة بين سيفوليين روابال (سئمنا من الأطفال الذين يقبلون المحطات طوال الوقت) و فرانسوا مارييه (دعوهم يشاهدون التلفاز). من المستحيل الفصل في الموضوع لأن الحجج المتناقضة والقطعية يقدمها المختصون من الطرفين: «العنف في الرائي يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» وبالمقابل «ليس لمشاهد

العنف في الرائي أي أثر يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» بل يمكنها على العكس أن يكون لها أثر مُفزعٍ صحي».

وهكذا فقد بينت فلسفتي الخاصة، إن الاعتصاب الجماعي لفتاة ضالة مدمنة على الهيرويين من قبل عصابة من أصحاب الرؤوس المحلوقة في مقبرة سيارات في دوسلدورف (ألمانيا)، أو المجزرة بمنشار الشجر لعائلة من طائفة المورمون يقوم بها رجل بين الحياة والموت في عشية عيد جميع القديسين في مدينة سولت ليك (إنني أخط الأشياء قليلاً، ولكن الفكرة العامة موجودة). حسناً فأنا لا أظن صراحة بأن هذه الأمور جيدة لنفسية أطفال الصغار الهشة، ومن يدرى ربما تكون مؤذية لأدمغتهم القابلة للتأثر، وكذلك ولكي أحميهم من اللقاءات السيئة على المحطة الخامسة والسادسة فإنني أتحرك.

إنني أستأجر أشرطة فيديو «للأفلام العالية الجودة المنتجة في هوليوود» في مراكز VO (الحصول عليها ليس سهلاً ويحتاج لمتطوع لجليها؛ ولكن العناء يكمن في إعادتها قبل إغلاق المتجر المزاجي). إنني أقوم بكفاح ملحمي بمساعدة جهاز الفيديو المبرمج لتسجيل تسع فترات بث خلال 18 شهراً، ولكن أنسى دائماً تسجيل الفيلم الوثائقي التعليمي الجذاب على المحطة السابعة. ويساعدني في ذلك أصدقائي المزودون بالكابلات في المقاطعات المجاورة.

إن هذه الفعالية تضع الإنسان تحت شيء من الضغط النفسي، ولكنها تستحق العناء، فقد وصلت إلى إضعاف التلفاز الذي لم ينجح بإيقاع أبنائي في شباهه.

في عام 1961م درس باندورا (الولايات المتحدة) وغيره سلوك أطفال مع لعبة تدعى «دمية بوبو» Bobo Doll بعد مشاهدتهم للعنف على الرائي أو غيره، وكانت استنتاجاتهم واضحة تماماً: إن العدائية لدى الأطفال الذين شاهدوا المشاهد العنيفة كانت أكبر منها لدى الأطفال الذين لم يتعرضوا لهذه التجربة، وهناك ملاحظة جديدة بالاهتمام: كان العنف الذي أبداه الأطفال تجاه اللعبة أكثر شدة، كلما كانت همجية المعتدي في البرنامج المشاهد موضع تقدير.

لجأ بيركوفيتش لنفس الأسلوب في نهاية السبعينات لدراسة العنف عند الأطفال الآخرين في الولايات المتحدة وبلجيكا، وهناك كذلك كانت النتائج غير قابلة للنقاش: كانت العدائية الجسدية والقولية أكبر عند الأطفال الذين شاهدوا أفلاماً عنيفة، مقارنة بتلك المشاهدة لدى الأطفال الذين تابعوا مشاهد عادية محايدة، وبحسب علمنا فإن بيركوفيتش كان من أوائل الذين أظهروا أن العناية التربوية تؤثر على درجة العنف عند الأطفال الذين يتعرضون لنفس المشاهد، ولكن لا بد لنا من أن نخفف من حدة هذه الملاحظات فكما يقول هوزمان: «لاشك أن تعريض الأطفال لرؤية العنف في فيلم أو برنامج تلفازي في أجواء المخبر الخاصة يزيد من احتمال تصرفهم بعدائية بعد هذه التجربة».

إن المرحلة التالية هي دراسة تأثير المشاهد العنيفة على المدى البعيد، خارج النطاق المصطنع للمخبر، وفي الحياة اليومية للأطفال، إن أبحاث بلسون المجراة على 1565 صبياً في مدينة لندن تتراوح أعمارهم بين 12-17 سنة (في عام 1978م) تبقى مثلاً يحتذى، وتظهر بوضوح وجلاء

حقيقة زيادة السلوك العدائي عند الصبية الأكثر تعرضاً من ناحية الكم للمشاهد العنيفة، إضافة لذلك يثير بلسون احتمال وجود علاقة بين درجة عنف الشباب، وطبيعة البرنامج المعروض، ويبدو أن هذه العلاقة تزداد قوة، كلما كان العنف « مملوساً » وغير مبرر ومغلفاً بالمكر والخديعة، بينما يكون العنف في الصور المتحركة وأفلام الخيال العلمي أقل ضرراً.

### كلما زاد عدد أجهزة التلفاز في بلد زاد القتل فيها

جرائم القتل المرتكبة في كندا و الولايات المتحدة زادت بنسبة 93% بين دخول التلفاز في عامي 1950م و1970م، وفي جنوب أفريقيا حيث لم يسمح بدخول التلفاز حتى عام 1975م، نلاحظ وجود نفس الظاهرة: بعد مرور 12 عاماً ازدادت نسبة القتل %130. هذا ما أظهرته دراسة أجراها براندون سنترول في جامعة واشنطن.

المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

وبحسب رأي بيلسون فإن آلية «رفع حرج» هي التي تفسر الانتقال إلى الفعل، فالحواجز المعتادة التربوية والاجتماعية تنهار تحت تأثير السيل المستمر من المشاهد العنيفة التي يرفع التلفاز من قيمتها.

وبإمكاننا أن نعدد الأمثلة التي تؤدي إلى استنتاجات مشابهة، ولكن الأهم هو اكتشاف ظروف نشوء هذا العنف، وهنا نجد الدور الرئيس الذي تلعبه الصحبة العائلية والتربوية التي يعبر عنها بجلاء كل من إيرونز وهيوزمان.

«كلما قل اهتمام الأهل بالطفل وقل حنانهم، قل اقتداؤه مثلاً أحد الأبوين، وزاد عنفه في المدرسة، إضافة إلى أن العقوبات - وخاصة الجسدية - التي يفرضها الوالدان تصبح مثلاً يحتذى في السلوك العدائي لدى الأطفال».

هذه النظرة تؤكد تعقيد أسباب ظاهرة العنف، ودون أن ندعي الحسم في المسؤولية النسبية للتلفاز، فبإمكاننا أن نؤكد أن التلفاز ليس سوى عنصر في لوحة اجتماعية تلعب فيها عوامل مثل الحب والتربية (التي يصعب قياسها «علمياً») دوراً حاسماً.

### عمر الأطفال وجنسهم

يظهر من خلال الدراسات أنه كلما كان التعرض للعنف مبكراً، كانت الآثار أكثر سلبية، وذلك بسبب عدم نضج الطفل الذي نوهنا إليه سابقاً، إلى جانب كون البنات أكثر مقاومة من الصبيان، والأمر يستحق أن نتوقف قليلاً عند هذه الملاحظات البسيطة؛ لأنها تسلط الضوء على أثر العوامل الأخرى التي يمكن لها أن تولد العنف.

إننا نعرف منذ زمن طويل أن الأطفال الصغار يتعلمون بالتأثر من جهة وبالتقليد من جهة أخرى، وفي عمر لم يتمكن فيه المنطق والتفكير والحزم بعد، يبدو منطقياً أن خطر تعرض الطفل لمشاهد عنيفة لا يمكن السيطرة عليه، فإذا كان منغمساً في جو من العدائية عدة ساعات في اليوم، فيمكننا أن نراهن بثقة على أن الطفل سيعبر بطريقة ما أو أخرى عن العواطف المتراكمة، إن الأحداث الجديدة المتعلقة بجرائم ارتكبتها أطفال وتشابه

أمثلة عرضها التلفاز تؤكد هذه الفرضية، أما المقاومة الأفضل التي تبديها البنات - دون استبعاد الأسباب المتعلقة بالمورثات - فيمكن تفسيرها على الأقل جزئياً بتركيز أضعف على تقدير القوة كوسيلة لحل النزاعات في نظامهن التربوي.

### الآثار «غير العنيفة» للعنف التلفازي

ركز الباحثون كثيراً في أبحاثهم على العنف المولد للعنف، أما الأبحاث المجرأة على النتائج الأخرى لمشاهدة الصور العنيفة فهي قليلة.

ليليان لورسا الاختصاصية بعلم الاجتماع، والعاملة كمديرة أبحاث في مركز الأبحاث العلمية الوطني الفرنسي CNRS، هي دون شك الأكثر دراسة (فيما يخص فرنسا) للتجربة التلفازية عند أطفال مدراس الحضانة. وقد اهتمت خاصة بالقلق الذي تبعته مشاهدة رسوم متحركة عنيفة مثل غولدوراك، بيومان أو فرسان زودياك الأكثر رواجاً في ذلك الوقت. ومن خلال حوار متتابع مع 421 طفلاً من مستويات اجتماعية مختلفة، أظهرت وجود صدمات نفسية حقيقية عند الأطفال الصغار، وخطأً خطيراً بين الواقع والخيال.

وبرأي ليليان لورسا، فإن الآباء والبالغين عموماً يقللون من أهمية وخطورة عرض المشاهد العنيفة على التلفاز، وتأثيرها المديد على نفسية الطفل، وقد لاحظت أن الضرر يزداد كلما نقص الاهتمام والحنان المقدم من جانب العائلة، وأنه يختلف باختلاف الوسط الاقتصادي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل.

وبعد أن تركت جانباً الأبحاث المخبرية، أو العبث بالإحصائيات، قامت بجمع صبور لشهادات أطفال تصدم ببساطتها، وبعيدة جداً عمّا كان يتخيله المدرسون والآباء، إنها تتناول ظاهرة الانبهار التي تعرضنا لها سابقاً، والأفعال نصف الواعية اللاشعورية التي لا سيطرة للوعي عليها. ومن هنا يأتي الخطر الذي يمكن حصره بوسيلة الإعلام التلفازية. فعندما يقرأ الأهل القصص للأطفال، فإن الصلة بالواقع قائمة، ولا يحصل الأثر المنوم مغناطيسياً؛ لأن علاقة الحب محترمة. أما عندما يقرأ الطفل بنفسه فعليه أن يبذل جهد تركيز يمنع الإيحاء، ويبقيه في حالة يقظة واقية، وهذا بالضبط الأثر الذي يجهله الأشخاص المهتمون (أو غير المهتمين) بالأطفال الصغار.

إن ما يميز معظم الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع هو المقاربة الشخصية، أو صغر المجموعات المدروسة، وبهذه المناسبة فمن المهم ذكر دراسة براندون سنترول التي أجريت في جامعة واشنطن، والتي لا تقوم على دراسة عينة مختارة وإنما مجموع سكان البلدان الثلاثة: كندا والولايات المتحدة بين العامين 1950م و1970م، وجنوب أفريقيا بين العامين 1975م و1987م، إلى ماذا تشير هذه التواريخ؟ إلى المدة الفاصلة بين دخول التلفاز وبين بداية حساب عدد جرائم القتل في هذه البلاد المختلفة. بالنسبة للبلدين الموجودين في أمريكا الشمالية، يمكننا الكلام عن زيادة قدرها %130. إن تطابق المنحنيات للدارسين يظهر أن الفاصل الزمني بين الظاهرتين واحد، مما يقترح وجود علاقة بين وسيلة الإعلام هذه، وازدياد ظاهرة العنف.

## الحقيقة المجردة: ميتران هو عبارة عن ضفدع

في مدرسة لحضانة الأطفال في هذه السنة التي تصادف الذكرى المئتين لاندلاع الثورة الفرنسية، تتساءل المدرسة: «هل فرانسوا ميتران ملك؟». وتجب جوقة الأطفال الصغار ذوي السنوات الأربع ببراءة متعجبة: «لا! إنه ضفدع!». أليس برنامج «عرض الحيوانات» حيث يُعرض رجال السياسة على شكل عرائس مسرح هو أحد البرامج الأكثر شعبية؟

إن المناسبة للتعرف على المصدر الأول للمعلومات بالنسبة لهؤلاء التلاميذ الصغار تُتاح بشكل رائع، ولكن الجميع يعلم أن المدرسة والتلفاز ليسا في حالة وفاق، ولما أخذ قراراً بالزواج لتأسيس التلفاز المدرسي، فإن هذا الزواج لم يأتِ بنتائج طيبة، في الولايات المتحدة «افتح يا سمسم» («المدعو 1، شارع السمسم» في محطاتنا التلفازية) تم تصميمه لمساعدة الأطفال من الشرائح الاجتماعية الفقيرة، والذين لا يرتادون المدرسة على التجهز لدخولها.

وقد تبين من خلال التجربة أنها أفادت الأطفال في الطبقات الموسرة أكثر من الأطفال الفقراء، وخاصة بوجود شخص بالغ يشجعهم.

التلفاز ليس ديموقراطياً، ومن ثمَّ فالمدرسة هي الوحيدة القادرة على استبدال الوالدين الغائبين أو اللذين لا يقومان بدورهما. وبالإجمال فالمدرسة لم تتخذ قراراً بعد بإعطاء التلفاز حق المواطنة. ذلك التلفاز الحقيقي الذي صنع ليُسلي، و ذلك الذي يجعل الأطفال يبدعون، هل هو حقيقة مستحيل استغلال هذا الحماس؟

العديد من المدرسين لم يعرفوا غولدوراك إلا عن طريق «اللوحات الحرة» في صفهم، لماذا يستمر المدرسون بالطلب من تلاميذهم أن يخبروا كيف قضوا يوم الأربعاء؟ ويرفضون بنفس الوقت سماع حديثهم عن أبطالهم المفضلين، أو عن لوي دو فينيس الذي شاهدوه ليلة البارحة؟

مارتين فالو، عالم التربية Le Monde de l'Education juin 1989

### التأثير المُفرغ للعنف التلفازي

بحسب نظرية التنفيس، وهي كلمة لاتينية تعني بالدقة «التنقية»، يُحرر العنف المُمثل المُشاهد من الدوافع الهدامة التي يحملها بين جنبيه. ويبدو أن هذه المُقاربة مقنعة عندما يتعلق الأمر ببالغين يشاهدون فلماً ذا مستوى فني عالٍ (مأساة يونانية على سبيل المثال)، ولكنها لا تنطبق على وسيلة إعلام «مؤثرة» كالتلفاز، ولا تنطبق خاصة على أطفال قدرتهم على استيعاب التعبير الرمزي محدودة جداً، ففي كتابه «الإنسان العدائي» يدعم بيير كارلي على العكس فكرة «أن التنفيس يسبب غالباً تقوية السلوك العدواني، ومن ثم زيادة احتمال نقله إلى الواقع».

أما ليليان لورسا فهي بدورها ترفض كذلك فكرة التنفيس، تستنتج - إضافة للعديد من الباحثين الأمريكيين والأوروبيين - أن للتلفاز تأثيراً مكبراً على الأطفال، وإن كان هذا الأثر لا يؤدي بالضرورة للقيام بما يشاهدون.

### تغير التصورات

دون الدخول في تفاصيل الطريقة التي تستخدمها ليليان لورسا وآخرون، يجب التأكيد على الفوضى التي يسببها العنف المعروض على

التلفاز على تصور الأطفال للواقع، بإضافة للخلط بين الواقع والخيال المذكور سابقاً، يُلاحظ وجود عدم قدرة على الوصف المرتب، وصعوبة في تقمص الشخصيات بطريقة بناءة (كما يحدث عند سماع أساطير الجنيات مثلاً)، وذوبان الشخصية التي مازالت هشة عند الأطفال الصغار، وتشوه في استيعاب الزمان والمكان... إلخ، دون أن يستطيع الباحثون تحديد الأسباب، وكونها مرتبطة بشكل أو محتوى البرامج (دون شك، الاثنان يؤثران).

وهنا كذلك يبدو جلياً أن غياب الأثر المُعادل العائلي والمدرسي، الذي يوازن التأثيرات المنحرفة لبرامج سيئة التصميم، وفي وسيلة إعلام يصعب التحكم بها، هذا الغياب سيكون عاملاً يزيد الوضع سوءاً، يبقى علينا أن نعيد السؤال الأبدي والذي لا يمكن الالتفاف حوله: هل التلفاز أداة سيئة لحضارة جيدة؟ أم أنه على العكس المثال الحي لثقافة فقدت معالمها، وانطلقت بمضء على طريق منحرف؟.

### في محاولة لإنهاء الموضوع دون الوصول للاستنتاج

يمكننا أن نتابع بالتأكيد لعبة ذكر الأقوال والمراجع المتناقضة إلى ما لا نهاية، وذلك بهدف دعم موقعنا المساند أو المعارض للتلفاز، ولكننا لسنا ملزمين بالاستناد دائماً لدراسات الآخرين، وأن نكون الناطقين باسمهم. فأطفالنا وتلاميذنا، وأطفال معروفون أو غير معروفين لنا يكبرون تحت سمعنا وبصرنا، إضافة للطفل الذي ما زال حياً في أعماقتنا كبالغين راشدين، يكفي أن نلاحظ ما فينا وما حولنا لنستوعب الحقيقة.

ماذا نرى؟ أن حقل رؤيتنا أوسع بكثير من أكثر الشاشات اتساعاً، وأن المعلومات التي نحصل عليها من الواقع المَعاش تفوق جداً كماً وكيفاً الاهتزازات الضوئية التعيسة لأشعة مهبطية على شاشة ذات 625 أو 819 خطاً. وأن التلفاز لن يستبدل أبداً نضارة صباح مشرق، ودفء جسد يلتصق بك، وعبق غابة بعد هطول المطر.

إن ذكرياتنا الأكثر غنى مصدرها أناس أحياء إلينا وأعمال تربينا، وأمكنة وجدنا فيها طعم الفردوس الضائع، وربما كتاب غداً صديقاً لنا.

بالمقابل لا يترك سيل المشاهد التلفازية التي يمحو بعضها بعضاً في جوم من العبث السطحي أي أثر - بطبيعة الحال زائل - على رمل الذاكرة القريبة، حتى العنف عندما نحرره من سجنه الضيق يصبح فرصة للسمو والارتفاع، فعندما تناضل لقضية سامية مع رفاق بلحمهم ودمهم، لا بد لنا من اختبار الواقع، واكتشاف الممكن، ومواجهة الصعاب، وتقدير فرص النجاح، والحزم في الأمور... إلخ، إن التأثير الأسوأ للتلفاز على الطفل ربما ينتج عن حرمانه من الخير الكثير باحتلاله كل الزمان والمكان في نفسه أو روحه، أكثر من كونه ناتجاً عن «الإثم» الذي يرتكبه.

كم من الصداقات نخسرها بسبب شبح شخصية خيالية سيئة؟ كم من الاهتزازات فوق ماء النهر نسيناها بسبب برنامج تلفازي؟ كم من الحب خفقناه ضمن جدران أربعة لفرقة سيئة التهوية؟ وكم من العواطف أطفأناها بتلفاز يشتغل؟

إننا لا نحمي الطفل من هذه المضار بالمنع من المشاهدة، أو بإعطاء دروس مبادئ و أخلاق، إننا لا نبعد الشيطان بجلسات هدفها طرده، كما أننا لا نقضي على الكذب بالطرد من رحمة الله، إن حل المشكلة يكمن أولاً في تصفية الأمور مع النفس أولاً، ومعرفة ما نريد أن نعطي للآخر أو ننقل إليه، إذاً يجب أن نمتلك هذا الشيء وأن نحياه بأنفسنا، ثم نتعلم كيف ننقله للآخرين، وأن نستعيد دورنا كأب ومدرس و صديق، ذلك الدور الذي لم يكن علينا أن نتخلى عنه أبداً، وهكذا يبقى التلفاز جهازاً بكل بساطة، مع كل محدوديته وحسناته، وقدرته على التسلية والإخبار والتعليم، وعجزه التام عن منح الحب والحياة.

كيف يكون تحقيق ذلك سيكون عنوان الفصل الأخير من هذا الكتاب، الذي ستكونون أبطاله.





«الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التلفاز هي عبارة عن مادة مخدرة خفية يستخدمها الأبوان، فالأطفال الصغار بمجرد وجودهم مرتاحين على أرضية البيت الخشبية أمام شاشة التلفاز، يعم مباشرة صمت مطبق رائع ولكنه مُريب...»

مقولة مستقاة من جريدة نيويورك تايمز عام 1948م!

## الفصل الخامس

### التلفاز والحياة الاجتماعية والطفل في هذا الخضم

إن خطورة التلفاز لدى الأطفال - أو هيمنته عليهم إذا أردنا - تدعو إلى القلق.

إن القلقين وربما المهاجمين في المقام الأول هم الوالدان والمدرسون. وهذا أمر منطقي جداً: فهذان الصنفان من الكبار يعيشان يومياً التطور الحاصل في عالم الأطفال المحفوف بالتيهان والمخاوف والفرحة والقيود. فالمدرسون الذين يقومون بمهمة التربية يرون بانزعاج ممزوج بالاحتقار أو الذعر الأطفال الذين أكلوا إليهم من قبل المدرسة يصرفون وقتاً متزايداً من فراغهم أمام أجهزة التلفاز.

إنهم يشاهدون الأطفال! هل هذا التلصص ناقذ؟ أم أنه عفوي، أم أنه مجرد تلصص ليس إلا؟

### هل هي محاسبة على النوايا؟

قبل أن ندخل موضوع تأثيرات التلفاز على الناحية الاجتماعية للطفل من بابه الواسع، بدا لنا أن نحدد مسؤولية الكبار كحماة لأرواح الأطفال.